الفصل الثانى

منهجية التاريخ

ـ الوثائق ، وما هى ؟ .
ـ النقوش والباليوجرافيا .
ـ الوثائق المكتوبة : الورق والرق والقراطيس .
ـ قطع العملة والمسكوكات .
ـ الموارد ، والأصول ، والمراجع .
ـ هل التاريخ علم ، أم فن ؟ .
ـ أدوات العمل .
ـ الدقة والشمول أساس قيمة البحث العلمى فى التاريخ .

obeikandl.com

obeikandl.com

منهجية التاريخ

منهجية التاريخ : هى الطريقة العلمية التى تتبع فى جمع المادة التاريخية وترتيبها والاستفادة منها ، فنحن نعتمد فى كتابة التاريخ على ما يسمى بالوثائق . والوثيقة : هى ما يُوثَّق كلامك ويدل على أنك تقول ما تقول وتكتب ما تكتب معتمداً على أصول يمكن لغيرك أن يطلع عليها ليتحقق من صحة كلامك وصواب أحكامك ؛ لأننا لا نصدر فى كتابة التاريخ عن الهوى أو الذاكرة أو الانطباع الشخصى أو العاطفة ، بل على الوقائع التى تؤيدها الوثائق .

الوثائق :

ولكى يكون التاريخ جديراً بهذا الاسم والوصف ينبغى أن يقوم على أصول والأصول هى الوثائق ، والوثائق تشمل كل ما يمكنك أن تعتمد عليه فى كتابة تاريخ عصر أو رجل أو حادث أو أمة ، وأولها المؤلفات والمدونات المكتوبة والوثائق الرسمية وغير الرسمية من أوامر الدول أو الحكام أو مكاتبات الدول ومكاتبات الأفراد ، بشرط أن تكون محققة الأصالة ، والوثائق يمكن أن تكون أحجاراً أو قطعاً من المعدن أو الأصداف أو الحفريات ذات الدلالة على تاريخ الأرض ، وأدوار ذلك التاريخ ، وقد تكون أحجاراً أو معادن مهيأة لتكون أسلحة أو أدوات تعين الإنسان فى مطالب حياته ، وتدخل فيها الأحجار التى أقامها البشر ليستظلوا بها ، أو ليحموا أنفسهم من المطر تحتها ، وهى ما يسمى بالدولمين Dolmen ، وكذلك ما يُدْخله الإنسان على بعض الغيران والكهوف ليجعلها مناسبة لسكناه وأمنه ، وما يتخذه من أحجار لسد مداخلها بعد أن يأوى إليها، وكذلك عظام الإنسان نفسه ، وعظام ما وجد معه من حيوانات تدل على استئناسه لها ، والاستعانة بها فى حياته .

النقوش والباليوجرافيا :

وتدخل فى الوثائق أيضاً النقوش على الأحجار أو الأشجار أو جدران الغيران، سواء أكانت كتابات أم رسوماً ذات معان لمن حفروها ، أو دلالات بالنسبة لنا ، وتسمى فى مجموعها نقوشاً أو تسجيلات Inscriptions ، وتفسير رموز هذه النقوش أو قراءتها واستخراج معانيها ، هو ما يسمى بعلم الكتابات على الأحجار أو الباليوجرافيا Paleography وقطع المعادن التى يعثر عليها تعتبر وثائق تاريخية إذا دلت على معنى تاريخى مثل قدرة الإنسان على استخدامها واستعمالها غفلاً دون معالجة ، أو معالجة علاجاً قليلاً مثل سنها ، أو صقلها ، أو تشكيلها فى هيئة تخدم غرضاً من أغراضه ، وهذه كلها وثائق عصور ما قبل التاريخ، أى : الوثائق التى لا تحمل كتابات ، فلما اهتدى الإنسان إلى الكتابة أو إلى الرموز التى تدل على معان ونقشها على الحجارة أو المعدن أو الخشب ، دخلنا فى عصر التاريخ وعصور الوثائق المكتوبة على الحجر أو الجلد أو العظام ثم على الورق .

وفى دراسة عصور التاريخ يهتم المؤرخ بكل ما هو مكتوب ومصنوع أو مبنى، فالنص المكتوب أيّاً كان موضوعه ومعناه يعتبر وثيقة، وآنية الفخار وثيقة، وقطعة النسيج وثيقة ، وقطعة السلاح وثيقة ، وشاهد القبر وثيقة ، ومحتويات القبور وثائق ، وكذلك التماثيل والتصاوير والكتابات على الأحجار وغير الأحجار ، وهذه إما أن توجد فى المواضع التى بقيت فيها ، كالجبانات والقبور والمعابد ، والدور والملاعب والحمامات وما إليها ، أو تكون قد نقلت إلى المتاحف لتصان فيها ويفيد منها الناس ، ومن هنا كانت أدلة المتاحف أو أدلة المجموعات الشخصية وثائق ، والدليل هنا هو ما يسمى باسم Catalogue; guide واللفظ الأول معناه «الدليل» ، والثانى معناه «الفهرس» ، ولكننا لا نستعمل لفظ «الفهرس» ، أو «فهرست» فى هذا المعنى .

الوثائق المكتوبة

الورق والرق والقراطيس :

ثم تجيء بعد ذلك الوثائق المكتوبة ، إما على جدران المبانى ، أو فى الصحف ، أو أى مادة يمكن أن يعتمد عليها ، وهذه كلها تنقل وتنشر فى كتب بعد أن تحقق وتشرح وتعد للاستعمال العلمى ، وهى فى العادة تصاحب بمقدمات ودراسات واستنتاجات ، ثم الكتابات على صفحات الجلود التى قد تطول وتطوى ، وتسمى باسم السجلات ، والسجل : لفظ لاتينى Sigillum ، ولكنه دخل العربية وورد فى القرآن الكريم ، ويطلق عليه فى الإنجليزية اسم Scroll ، وفى الفرنسية اسم Rouleau ، وقد يكون السجل من قماش أو من ورق البردى Papyrus ، وهو ورق نبات البشذين الذى ينبت فى المسطحات المائية فى مصر خاصة، وهو ورق عريض يؤخذ ويجفف نصف تجفيف ، ويعالج بالتسخين القليل ، حتى تتوقف الحياة فى أليافه ، ويثبت على حالة من الليونة تمنع تقصفه عند الجفاف ، ثم يقطَّع شرائح يلصق بعضُها ببعض لُحْمه وسَدَاه ، فيصبح أوراقاً يكتب عليها وتطوى ، وتلك هى البرديات ، وهى لم تصنع إلا فى مصر .. فكل بردية على وجه الأرض مصرية ، وقد أصبحت مادة الكتابة الرئيسية فى العالم كله حتى دخل الورق عالم العرب آتياً من الصين ، وقد أشير إلى أوراق البردى فى القرآن الكريم باسم الصُحُف ، والصحف المسَطَّرة أحياناً ، أما فى الأسواق وفى الاستعمال العادى فهى القراطيس ، وواحدها قرطاس ، وأما الورق فقد عرف عند العرب أولاً باسم الكاغد ، ثم صنعه العرب وبرعوا فيه ، وأصبحوا يصدرونه إلى غيرهم ، وقد اشتهرت به بغداد أول الأمر ، ثم صنع فى معظم بلاد الإسلام ، وفى الأندلس جوَّد العرب نوعاً منه يصنع من لباب الخشب فى مدينة شاطبة فى ولاية مُرْسِيَّة فى شرق الأندلس ، وقد اشتهر الورق الشاطبى فى عالم الإسلام كله ، وأحسن المخطوطات والوثائق الأندلسية وصلنا على ورق شاطبى ، ولا زالت شاطبة Jativa إلى اليوم من أكبر مراكز صناعة الورق فى إسبانيا .

ثم قبس العرب من اليونان نوعاً من الصحف ، يصنع من قماش يُقَوَّى بطبقة من الشمع أو الغراء كان يصنع من قديم الزمان فى بلدة برجاموم فى غربى آسيا الصغرى ، فدخل بلاد الإسلام وعرف باسم الرَّق ـ بفتح الراء ـ وكانت تكتب عليه المراسيم والأوامر السلطانية خاصة .

هذه الوثائق كلها مكتوبة وغير مكتوبة وصلتنا فى قطع مفردة ، أو فى صورة كتب ، وكلها وثائق ، وهى مادة تسجيل التاريخ لا مادة التاريخ ؛ لأن مادة التاريخ نفسه هى الإنسان .

وقد وضع العرب الأولون قواعد محددة مقننة فى نقد النصوص ، ابتكروها أول الأمر لضبط الحديث النبوى ، ثم أصبحت قواعد عامة للضبط العلمى عند العرب ، وإلى هذه القواعد يرجع ما تمتاز به الأصول العلمية العربية من دقة وضبط وروح علمى جدير بالإعجاب .

ثم جاء الغربيون ابتداءً من عصر النهضة ، فوضعوا قواعد لضبط النصوص شبيهة بالقواعد العربية الأولى ، ولابد للمؤرخ من اتباع تلك القواعد العربية وغير العربية فيما ينشر من النصوص لكى يكون استعمالها مأموناً . وقد نشر الغربيون كل ما وجدوه من وثائقهم فى كل العصور فى كتب محققة ، وسرنا نحن فى هذا المجال شوطاً بعيداً .

قطع العملة والمسكوكات :

ويدخل فى الوثائق اليوم قطع العملة ، ولها علم خاص يسمى النميَّات Numismatics ، وتشمل كذلك المسكوكات التى تسك بغرض تسجيل حادث ، أو تخليد ذكرى ، أو صياغة وسام ، وهذه كلها تعرف باسم Medailles ، وهى من الوثائق مثلها فى ذلك مثل النميات ، ولها فهارسها أو كتالوجاتها ، وكذلك للنميات أدلة ، لا بد من الرجوع إليها .

الموارد والأصول والمراجع :

وتلك كلها وما جرى مجراها هى الأصول أو المنابع التى تعرف فى الإنجليزية والفرنسية باسم Sources ، وفى الألمانية باسم Quellen ، وهى الأصول

المباشرة التى كتبت فى العصر الذى ندرسه أو بعده ، ولكنها موثقة بما يضمن أصالتها، ثم تجىء بعد ذلك المؤلفات التى كتبت على أساس من الأصول، وتلك هى المراجع وتسمى بالإنجليزية Reference books وبالفرنسية Ouvrages de ref-erence وكلها لابد أن تحقق وتدرس دراسة تعمق ودقة تامة ، ولهذه الدراسة أصولها وقواعدها وعلى المؤرخ أن يبدأ بالاعتماد على الأصول ، ثم على المراجع ، وهما يسميان فى مجموعهما بالموارد .

وهذه الدراسة والتحقيق والتدقيق هى المنهجية التاريخية ، لها قواعد أساسية لا يصح أى عمل من أعمال التأريخ إلا إذا قام على أساسها .. ثم تجىء بعد ذلك الدراسة والاستنتاج والمقارنة لاستخلاص الحوادث والأسباب والنتائج وروايتها بأمانة وتدقيق وترتيب، وإلى هنا ينتهى عمل المؤرخ، وهنا أيضاً ينتهى الجانب العلمى من مهمة التأريخ، أما الصياغة بعد ذلك، سواء فى الأسلوب اللغوى أمْ فى الاستنتاج واستخراج الأحكام، فهى مرحلة من مراحل التأليف التاريخى تتوقف على شخصية المؤرخ وملكاته والغاية التى يتوخاها، ولهذه كلها ضوابط تحكمها: وهى الأمانة والصدق وحسن استخدام النص ، واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعانى ، وعدم تحميل النصوص فوق مادتها، وتجنب الاعتماد على الفروض وبناء الأحكام عليها ، أو استخراج أحكام تقوم على المنطق وحده ثم اعتبارها حقائق ثم البناء عليها ، وتركيب استنتاجات وآراء تقوم فى قاعدتها على غير أساس . ولابد بعد ذلك من التزام المنطق؛ فإن التاريخ ـ كما قلنا ـ علم بلا قواعد، ولكنه علم يحكمه المنطق ، فكل حادثة لها أسبابها وعللها ولها نتائجها ، وهذه كلها لا بد من مراعاة التماسك الموضوعى ـ لا الشكلى ـ بينها . وإلى هنا ينتهى الجانب العلمى فى التاريخ ـ كما قلنا ـ وما بعد ذلك من عمل المؤرخ هو الجانب الفنى التأملى الذى يسمى أحياناً فلسفة أو حكمة.

وهذه القواعد المحددة للعمل التأريخى هى سبب المناقشة التى كانت فى يوم من الأيام موضوعاً رئيسياً من موضوعات علم التاريخ ، وهو : هل التأريخ علم أمْ فن ؟ وقد انحسمت المناقشة من زمن ، ويجمع أصحاب التاريخ اليوم

على أن التـأريخ علم بمنهـجه وفن بأسـلوب عرضـه؛ فنحن نتـبع فى دراستـه كل أصول البـحث العلمى وقـواعده فى جـمع الأصول، واسـتخراج المـادة العلمـية السليمة منها ، ثم يبدأ الجـانب الفنى أو التأملى أو الحكمى ، وهو طريقة العرض والصياغة .

هل التاريخ علم ، أم فن ؟ :

وترجع المشكلة ـ وما هى حقيقة بمشكلة ـ فى أساسها إلى أن العرب أطلقوا على التـأريخ أحيـاناً اسم علم ، وأحيـاناً أخرى اسم فن ، والعـرب الأُول قسَّـموا المعـارف الإنسانيـة إلى علوم وفنون، فـالعلوم هى علوم الدين من قرآن وحـديث وتفسير، وما يتصل بذلك من علوم الـلغة من نحو وصرف وتركيب وبيان وبديع، ومـا عدا ذلك من ضـروب المـعرفـة وميـادينهـا تسمى فنـوناً، فلا يقـال قط: فن الحديث؛ لأن هذا علم كـامل تندرج تحته علوم كـثيرة، ولكن يقـال: فن التأريخ، وفن السِّيَر، وفن البنيان، وما إلى ذلك، وإن كان فى اسـتعمال اللفظين خلط كثير، فابن خلدون يسمى التـاريخ أحياناً علماً وأحيانـاً فناً، وابن النديم يسمى كل فروع المـعرفـة فنوناً، وحاجى خـليفـة سمى كـتابه (كـشف الظنون فى أسـامى الكتب والفنون) وقد يتوسع المؤلفـون العرب فيجعلون كل فروع المعرفـة أدباً فيما عدا علوم الدين، وهى علـوم القرآن والـحديث واللـغة والنـحو. والمـؤلفـون العـرب الأوائل أطلقوا لـفظ الأدب على كل المعارف الـتى يمكن للإنسان أن يحـصِّلها، فقالوا:إن الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف، والتأديب:هو التعليم، والمؤدِّب: هو المعلِّم .

أدوات العمل :

هذا.. ولا تسـتقيم المنهجـية العلمـية التاريخـية إلا إذا توافرت لهـا أدواتها، وهى مـا يسمى بالفـرنسيـة Les instruments du travail ، من مـعـاجم وأدلـة وفهارس وكشافات مصطلحات، ودوائر معارف عامة ومتخصصة، وكل هذه ـ مع الأسف ـ غير متـوافرة على النحو المطلوب للمؤرخ العربى. والمسـتشرقون بدأوا

عملهم العلمى الضخم بإعداد أدوات العمل، فحققوا المعاجم ونشروها، وواحد منهم ـ وهو راينهارت دوزى ـ عمل ملحقاً للقواميس العربية ، جمع فيه كل الألفاظ التى عثر عليها فيما قرأ من النصوص ، ولم ترد فى المعاجم العربية، ومعظمها من الدخيل والمعرَّب والعامى والاصطلاحى، وما يستعمل فى صنعة من الصناعات أو حرفة من الحرف، ثم عمل معجماً لأسماء الملابس العربية، ويدخل فيها أنواع النسيج، ثم نشر جوستاف فلوجل نص القرآن الكريم محققاً ، وهذا المصحف المحقق غاية التحقيق هو الذى حفزنا على مجاراته فيما ننسخ ونطبع من المصاحف؛ لأن المصاحف المخطوطة التى خلفها لنا الماضون لا تخلو من أخطاء، تأتى من السهو ونقص اليقظة وقلة المراجعة، ولهذا السبب أنشئت فى مصر مشيخة المقارئ للتثبت من صحة نص كل مصحف يُتداول بين الناس ، وعمل جوستاف فلوجل معجماً أبجدياً لألفاظ القرآن الكريم، وعلى أساسه عمل محمد فؤاد عبد الباقى معجمه المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وهو أداة عمل لا يستغنى عنها باحث فى الدراسات العربية والإسلامية. ونشر المستشرقون كذلك أدوات العمل التى أعدها القدامى من مثل «معجم البلدان» و«معجم الأدباء» لياقوت الحموى، و«كتاب الفهرست» لابن النديم،و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ، وتكملته التى عملها ابن شاكر الكتبى ، «والمُعرَّب» لأبى منصور الجواليقى ، و«الاشتقاق» لابن دريد، و«الأنساب» للسمعانى، وما إليها. ونشروا تاريخ الطبرى وعملوا له فهرساً عظيم القيمة، وعكف فانْسينك على ترتيب الحديث النبوى وفهرسته، ونشروا أدلة المتاحف، وفهارس المسكوكات، وعمل بروكلمان كتابه الأشهر عن تاريخ الأدب العربى ، ومن سنة ١٩٠٨م شرعوا فى عمل دائرة المعارف الإسلامية وأتموها، ثم شرعوا فى عمل طبعة جديدة لها وهكذا. وقد غفلنا نحن عن أدوات العمل هذه كلها، مع أن أجيالنا العلمية السالفة اهتمت بها، ومن واجبنا اليوم استكمال أدوات البحث التاريخى حتى نستطيع توفير الوقت الذى يضيع فى البحث عن التفاصيل، ويكفى أن نذكر هنا مدى الخدمة الجليلة التى قدمها لنا الأستاذ عبد السلام هارون، بتحقيقه

لكتاب «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم الأندلسى، ونشره بأضبط مما فعله ليفى بروفنسال قبله، ولكننا لا نزال نعتمد على كتاب «نسب قريش» للمصعب الزبيرى وهو من تحقيق بروفنسال، وقد نشرنا جزءاً من كتاب « الأنساب الكبير» للزبير بن بكار، ولكننا لا بد لنا من نشر كتاب «النسب الكبير» لهشام بن السائب الكلبى، ولا بد كذلك من استكمال معجم الأحاديث النبوية، وعلينا أن نعمل قاموساً لمصطلح الحديث، وكل هذه وغيرها كثير، أدوات عمل كان ينبغى أن نكون قد فرغنا من إعدادها من زمن طويل. وفيما يتعلق بكتاب «النسب الكبير» لهشام بن السائب الكلبى نقول: إن المستشرق الألمانى جاسكل درسه ورتب مادته فى جداول، هى الغاية فى الدقة، ونشرها فى كتاب بالغ الدقة عنوانه: Genealogische Tabellen لا يستغنى عن الرجوع إليه منا أحد .

الدقة والشمول أساس قيمة البحث العلمى فى التاريخ :

ولابد أن تكون دراسة الوثائق دراسة استيفاء وشمول، فلا يكتفى المؤرخ بجزء منها يعتمد عليه ويستدل به ويهمل الباقى، فإذا رجعت ـ مثلاً ـ إلى وثائق قصر عابدين فى مطلب من مطالب الدراسة فلابد أن تطلع على كل المحافظ الخاصة بموضوعك، وتقرأ وثائقها بعناية وتدرسها واحدة فواحدة، ويستحسن أن تبدأ بعمل فهرس كامل لكل وثائق الدراسة التى تقوم بها، ثم تكون دراستك بعد ذلك على أساس ذلك الفهرس، فالمتخصصون فى الدراسات الرومانية مثلاً أحصوا كل النصوص اللاتينية التى وجدوها سواء فى الكتب، أَمْ على الآثار، أَم العملة، أَمْ أى نوع من أنواع الوثائق، وجمعوها فى فهارس ووضعوا لكل نص رقماً يستطيع الرجوع إليه أى باحث يريد التحقق من ذلك الأصل. ومن أسف أن أصولنا لم تجمع أو تحصى أو تبوب، حتى الكتب لم يفهرس معظمها، أضف إلى ذلك أن فهارس الكتب عندنا كلها ناقصة غير دقيقة إلا فيما ندر،وهذا فى ذاته يقلل من قيمة الفهارس جملة، فقد تبحث عن اللفظ أو اسم العلم ولا تجده فى الفهرس، وهو موجود فى النص، فيضيع عليك ـ بذلك ـ الشاهد الذى تريد أن

تستند إليه، وقد آن الأوان أن يتخصص فريق من خريجى معاهد الوثائق فى خدمة الكتب. هذا مطلب رئيسى يعهد الناس فيه ـ فى العادة ـ إلى مساعديهم أو أبنائهم على اعتبار أنه عمل سهل أو غير مهم، مع أنه من أصعب الأمور وأهمها، حتى تكون دراستنا للأصول دراسة استيفاء وشمول واستقصاء، ومن أكبر ما يدلك على اهتمام أهل الغرب بالشمول والاستقصاء فى عمل الفهارس أنهم جمعوا كل أسماء أعلام الأشخاص والعائلات الرومانية التى وجدوها فى النصوص أو على الآثار أو قطع العملة، وعملوا بها قاموساً فى غاية الدقة والشمول، بحيث إنك لو طلبت أى اسم علم أو أسرة رومانية وجدت عنها ما تريد فى ذلك القاموس. ونشأ لأسماء الأعلام هذا علم يسمى البوسوبوجرافيا Posopography .

***